١٣ ـ رحلة إلى الهنـــد

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

عميد كلية الآداب

مشاهد أخرى فى دهلى

ضريح صَفدَر جَنك :

ومن الآثار التى رأيتها فى دهلى ضريح لوزير من وزراء الدولة التيمورية ، وهو آخر ما شاد رجال الدولة من أضرحة كبيرة .

كان صفدر جنك وزيراً للسلطان أحمد شاه (١١٦١ — ١١٦٧ هـ) . وذلك قبل زوال الدولة التيمورية بمائة عام . وقد عجزت الدولة من بعدُ عن رفع الآثار الفخمة ، وتشييد مثل ما شيّدت من قبل إبّان شبابها وقوّتها .

والمزار ، فى جملته ، صورة من مقابر الملوك التيموريين . وكلها تتفق فى القواعد وتختلف فى التفصيل ، فهو كقبر همايون بناء عال عليه قبة ، حولها أبراج ، يقوم على دكة عالية وسط حديقة واسعة . ولكنه أيسر هندسة وأبسط خطة . فليس حول القبة حجرات كثيرة متواصلة كما فى مزار همايون بل يرى الواقف تحت القبة أربعة عقود فى الجهات الأربع يخترقها البصر إلى الحديقة المحيطة بالبناء على ما بالعقود من شبابيك الرخام .

ويمتاز هذا المزار بأربعة أبراج ضخام على زواياه الأربع ، تذكّر بالمآذن الأربع فى أركان مزار جهانكير فى لاهور والمآذن الأربع القائمة حول تاج محل منفصلة عن البناء .

ويقال إن فى المزار بادته وهندسته ما يؤذن بشيخوخة الدولة والفنون إذا قيس إلى نضارة الدولة وشبابها ممثّلة فى أبنية همايون وشاهجهان وأكبر .

وسنه ـ بعض آثارهم فى المقالات الآتية إن شاء الله . ولكن هذا لمزار لوزير لا لسلطان فينبغى أن يحسب هذا فى تقويم البناء .

ومن المشاهد التى رأيتها سقيفة جميلة من الرخام لاتدور عليها جدران ولكن تحملها عَمَد كثيرة أجيد نحتها وتشكيلها . وفوق السقيفة قباب كثيرة من الرخام .

ووسط السقيفة قبر عليه صفائح الرخام ، البيضاء البراقة كقبور التيموريين الأخرى . وفيها كلها روعة وجمال .

والقبر لأمير اسمه ميرزا عزيز كوكل تاش (الأخ من الرضاع) وهو أخو السلطان جلال الدين أكبر من الرضاع ، وابن أتكاخان أحد وزراء أكبر .

وتسمى هذه السقيفة الرواق ذا الأربعة والستين عموداً (چونسته كهمبا) .

يرى بعض الزائرين وبينهم كاتب المقالات

ولما خرجت من هذه السقيفة أبصرت أمامها على الطريق قبوراً فأشار دليلنا إلى واحد منها أخذت الحوادثُ من أحجاره وتراكم حوله غبار العصور فتأملت كتابة عليه فإذا هى :

رشك عرفى وفخر طالب مرد أسد الله خان غالب مرد

١٢٨٥

قلت : قبر الشاعر غالب ؟ قيل نعم . ومعنى البيت :

مات غَيرة « عرفى » وفخر طالب . مات أسد الله خان غالب

أى مات الذى يحسده عرفى ويفخر به طالب الخ .

فأما عرفى فهو الشاعر الفارسى عرفى الشيرازى من كبار شعراء الفارسية . رحل إلى الهند واتصل بجلال الدين أكبر وعاش هناك حتى أدركته الوفاة فى لاهور سنة ٩٩٩ وهو فى السادسة والثلاثين من عمره .

وكنت فى لاهور فى شهر نيسان الماضى (أبريل) وكان بها الصديق العالم الأديب على أصغر حكمت وزير المعارف فى إيران قبلا . فقال يوماً فى أحاديثه إن عرفى شيرازى وأنا شيرازى وقد مات هنا . وضحك . قلت يطيل الله عمرك ، ويقيك كل سوء .

وأما طالب فهو شاعر فارسى آخر من شعراء الفرس الذين رحلوا إلى الهند واتصل بجلال الدين أكبر وابنه جهانكير من بعده فحظى عندهما ، وذاع صيته ولقب « ملك الشعراء » وتوفى سنة ١٠٣٥ فى كشمير بعد أن جاوز المائة من عمره .

فهذا البيت الذى نقش على قبر غالب يشير إلى هذين الشاعرين اللذين ذاع صيتهما فى الهند فى القرن العاشر الهجرى .

وأسد الله غالب هذا له شأن فى الأدب الأردى ، إلى مكانته فى الأدب الفارسى . ولا بد من وقفة على قبر هذا الشاعر الذى زرته على غير قصد . وكان علىّ أن أسأل عنه ، وأسعى إليه ، أقضى حقه بوقفة :

وقفة فى العقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفة فى العقيق :

هو نجم الدولة ، دبير الملك ميرزا أسد الله خان .

وغالب لقبه الشعرى المعروف فى الأدب الفارسى بالتخلص .

وأصله من تركستان كأمير خسرو الذى ذكرناه من قبل قدم جدّه إلى الهند فى عهد شاه عالم (١١٧٣ — ١٢٠٢) ورحل أبوه عبد الله من دهلى إلى لكنهو ثم حيدر آباد .

وتقلبت به أمور حتى قتل فى إحدى الحروب . وأسد طفل فى الخامسة من عمره . وقد كفل اليتيم عمه نصر الله بك خان . ولما بلغ التاسعة توفى عمه ، فرتب له ملك دهلى إذ ذاك رزقاً شهرياً . ثم ترعرع وتقلبت به الغِيَر ، وذاع صيته فى الشعر ونال جوائز الأمراء وأرزاقهم حتى رجع إلى دهلى وأجريت عليه وظيفة . واستقر هناك حتى أدركه الموت سنة ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م) بعد زوال الدولة الإسلامية من الهند .

وكان غالب رضىّ الخلق ، حسن الفكاهة محسناً إلى أصحابه وتلاميذه ، ولكنه كان قلقاً لا يصبر على الأحداث .

وللغالب مذهب فى الشعر أنيق دقيق يحتفل فيه بالمعنى واللفظ وله فى الفارسية ديوان وثمانية مؤلفات بين نظم ونثر وله ديوان باللغة الأردية كذلك وبضعة مؤلفات منظومة ومنثورة .

وقد عنى الناس بديوانه الأردى كثيراً إذ كان الشاعر على قرب زمانه من أوائل المجيدين فى هذا اللسان . وقد شرح ديوانه هذا ثمانى مرات . وهو بعيد الغور فيه كثير من دقائق الصوفية .

وطبع الديوان فى ألمانيا طبعة مصوّرة جيلة بيعت النسخة منها بخمسة وثلاثين جنيهاً . ثم أعيدت هذه الطبعة فى حيدر آباد فبيعت النسخة بخمسة جنيهات . وأعيدت مرة أخرى فرخص ثمنها قليلا . وللديوان طبعات أخرى رخيصة .

وقد نشرتُ منذ سنين ترجمة غالب وترجمت أبياتاً متفرقة من شعره ، منها :

أرى شبك الأمواج فى كل لجة
بأفواه وحش البحر حولك وقُدّرا
فماذا تلاقى قطرة الماء من ردى
إلى أن ترى فى لجة الماء جوهرا

وهو يشير إلى أن الكمال لا يتاح إلا بعد نصب ومقاساة أهوال

ومن شعره :

وكنا نبرق الطوز أولى لو انه على قدر الأقداح أعطيت الخمر

ويقول فى مضى العمر سريعاً :

أسوم جواد العمر ريثاً وما له ركاب برجلى أو عنان بأنملى

وترى فى طبعة برلين مع هذا البيت صورة فرس ينهب الأرض عَدْواً عليه فارس مشدوه ليس فى يده عنان ولا فى رجله ركاب .

ويقول فى البلاغة :

وينفذ فى الألباب سحر بيانه فأحسب ما قد قاله كان فى لبّى

هذه وقفة قصيرة على قبر أسد الله غالب الشاعر الكبير .

وليت الزمن أمهلنا أياماً فى دهلى لنعود إلى قبره ، أو ساعات فى زيارتنا إياه لنستمد المعانى من هذا الرخام الحانى على رفات الشاعر الخالد كما تنطبق الصدفة على لؤلؤتها ؛ ولكن رحم الله الشاعر القائل :

أسوم جواد العمر ريثاً وما له ركاب برجلى أو عنان بأنملى

(للحديث صلة)

عبد الوهاب عزام

وقع فى المقال السابق أغلاط هى :

مبطن بالصوف	صوابه	بالصدف
تَفلَق	»	تفلق
بالسنقر	»	بايسُنقر

لا يكس أحد قبراً بغير النبات العشب — وكلة النبات زائدة